ر. د.م.د: ISSN 2437-0819-رقم الإيداع القانوني:6068-2014

دلالة أسماء الحيوان ،ودلالة المكان الموحش في التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

أ/ بلعباس ياسين
جامعة الحاج لخضر باتنة(2)

تاريخ الإرسال: 2018/05/28 تاريخ القبول:2018/12/28

الملخص:

لقد كانت الحيوانات في ناديها حين جاءها ابن شهيد مع تابعه ،وعرّفنا على بغلة وأنها تابعة لأحد الشيوخ ،وبالإوزّة وأنها تابعة لشخص شخصًا بعينه يعرفه ابن شهيد، ثم بمجموعة من حُمر الوحش التي أرادت أن تحكّمه في شعر اختلفوا فيه ..وكانت الدّلالات في كل وهو الافليلي.. وكان المكانُ الموحش عبارة عن سجن نفسيٍّ مهْمَا امتدّ في الطبيعة ،ومهمَا كان منفرجًا، فأبو نواس لا يعرفُ من المكان غير الخمرة وقد حوّل الدير الذي هو للعبادة إلى حانة..والصحراءُ موحشةٌ بسباعها مخيفةٌ بأجوائها..لا ينجو من غيلائها غير فارس أو مقتحم مقتدر..وقد كانت الوحشة حتى في مظاهر الماء ليحوّلها من باعث للحياة إلى منفذ للغباء وأخرى للهروب من المواجهة..

الكلمات المفتاحية:

ابن شهيد؛الحيوان ؛البغلة؛المكان؛الموحش؛الصحراء؛السباع ؛الدّلالة؛الماء؛

Abstrat:

The animals were in her club, which came from Ibn chouhaid with his follower, and we knew the bug and it a follower to one of them, and the goose and it a follower to one of the people also. And the group of red-beast that wanted to control the poet in which they differed .. And the connotations in all of this means a specific person is Al.Iflili .. The place was a brutal prison, no matter how extended in nature, and no matter how exiled, Abu Nawas does not know where the non-winery And about the monastery, which is to worship to a bar .. And the desert is muddy with is fears frightening.

مقدمة:

وجَدْتُ في قصَّة (التَّوابع والزَّوابع) لابن شُهيد ،المكانَ يَتَجَلى كأبْهَى مَا يَكونُ مُرْتبِطًا بصَاحِبه ،لا يكتفِي بإحضَار التابع أو الشَّيطان ،ولكنَّه يَحْتَويهِ فِي المكان الذِي كانَ يَحْيَاهُ فِي الدُّنْيَا .وإنْ كانَ يُحَاول إيهَامنَا بأنَّ الأرضَ ليسَت كالأرْض ،فإنَّه لا يفلتُ من المكان الذي كَانَ يَحْيَاه .ثمَّ هوَ لا يَربط البَشر بالمكان فقط بَل يتجَاوزه إلى رَبْط الحَيَوان أيضًا مِن خِلال زيَارته إلى نَاديهم..فمَن تكونُ هذه الحَيوانَات ؟ ومَا دلالة أسمَائها؟..وكيفَ وضَّفَ ابنُ شُهَيد الحَيوَان فِي خدمَة الغايَة مِنْ رحْلتِه إلى وَادِ الجِنّ.؟ومَا دَلالة المكان حِين يَتَحوّلُ إلى مُوحِش وقَدْ سَكنَه البَشَر؟

العرض:

إننا نَجدُ حُمُرَ الجِنّ ،وهي حَيَوانات لم نألفْ سَمَاعَها ولا نعرفُ وجودَها من قبلُ ،لكنَّ ابن شهيد أراد أن يتجاوزَ أمرَ الواقع إلى المتخيَّل ،فالرحْلةُ إلى العَالم الآخر (الجن) يمكنُ أن يحدث فيها كل شيء ويُوجِدُ اللامَوجود .لأنَّه في عَالم يَفترضُ أنَّه مَوجُودٌ في الوَاقع ولكنَّه الوَاقع الذِّهني لابن شهيد.

فإذا كنَّا نؤمنُ بعَالم الجِنّ ، وأخبرنَا اللهُ تَعالى عَنْه وعَن خَلقِهم ، وأسْبَاب ذلك ، لكنَّنَا لم نَتَصَوَّر أنْ فيهم الحَيَوَان كمَا هوَ الشَّأن في عَالمِنا نَحنُ البَشر..

فهل جاء بالجديد واخترق المألوف؟

لمْ يجدْ دَارسُو دانتي مَا يذكرُ فيه الحَيَوان فِي رحْلته إلى الجَحيم ،وفي كلّ دوَائرهَا التي زَارَها فلم يَجِدوا إلا بَشرا ،يتهَكَّم منْهُم ،ويتشفَّى فِيهم ،ويَصنِّفهم حَسْبَ أعْمَالهم في الدُّنيَا ، كمَا لم يفعلِ المَعَري بَعْدَه مَا فَعله ابنُ شُهيد في ذِكر الحَيَوَان، وَهُوَ عَمَل خَارق للمَألوف ، خَارجٌ عَن العَادَة ،ونَقصِدُ بالشَّيءِ الخَارِقِ مَا يَعنيه المُصطلح المُعْجَمِيُّ للجِذرِ اللغَوِيّ :خ.ر.ق. فـفِي "تاج العَروس" نجِد هذا الجِذرَ بمُخْتلفِ اشتقاقاته "الخَرق: الدّهش منْ خَوْفٍ أوْ حَيَاءٍ... أن يبهتَ فاتحًا عَيْنَيْهِ يَنظرُ. خَرَقَ:إذا دُهِشَ (فهُوَ خَرِق)"(1)..

وفي المُعجَم الوَسيط نَجدُ شرحًا للمَادة اللغويَّة :"يُقال سَيفٌ خارق: قاطعٌ، و(عند المتكلمين): ما خَالفَ العادَةَ ،وهو معْجِزٌ إنْ قارنَ التَّحَدّي. يُقالُ خَرِقَ الظبيُ وخَرقَ الطائرُ: دُهِشَ ولَصِقَ بالأرضِ إذا رَأى الصَّائدَ فلم يقدِرْ على النُّهُوضِ ولا الطَّيَرَانِ مِنْ خَوْفٍ"(2)

إنَّ النصَّ يبعثُ في نُفُوسِنَا الدَّهشَةَ والتَّعجُّبَ ونَحْنُ نَجدُ الكاتبَ يَتَكلمُ مَعَ حَيَوان الجِنّ ، وَيَصفُهم بهَذا الأسْلوبِ الذي يَصِفُ بهِ البشرَ ويجعَلُ أسلوبَه يرقى في التشبيهَات والاستعارات ،حتى كأنَّه يريدُ أن يوصلَ رسَالةَ القدح في علمَاء اللغَة والنَّقد في عصْرِهِ إلى المتلقي بأيسَرِ السُّبل لأنَّ البَلاغَةَ في التبليغ تقومُ على:" تَعْديل المُسْتَوى العَادي للتكرَار بخَرق القَوَاعد، أوبإبْداع قوَاعد جَديدَة "(3).

إنَّ هذه القواعدَ الجديدَةَ هي غيرُ المَألوفَة في الخِطاب العَربِيّ، ولا فِي المَوْرُوث الاجتمَاعِيّ والثقافِيّ في البيْئَة العربيَّة وهذا مَا ابتدَعَهُ ابنُ شُهيد . مثلمَا اعتَرفَ زَكي مبارك في كتابه:النثر الفني، عندمَا أشارَ إلى أنَّ العَربَ أَلِفَتْ تَوابعَ الشُّعَراءِ ولمْ تألفْ تَوَابعَ الكتَّابِ والخُطبَاءِ..(4) . بإتيانِه بتَوابِع الكتَّابِ..

إنَّها طبَقة سُفلى تلكَ التِي يتكلمُ فيهَا عَن الحَيَوَانات ويَربطها بأدبَاء في العَالم الحَقيقي، إنَّه الانتقامُ مِنْهم بأنْ أذلَّهُم وجَعَلهم فِي الأسْفل ،لمْ يكنِ المكانُ غيرَ اسْطبلاتِ الحَيَوانَات، وامتلاؤُه بالرَّوث والبَول والرَّائحَة الكريهَة مِمَّا يُوجِبُ البقَاءَ للأعْدَاء فيهِ بَل واتخَاذِه مسْكنًا..

لقَد جَعلَ من الإفليلي الجَدير بالتَّحْكيم فِي شِعر يُفوحُ برَائحَة الرَّوث والبَول ، وليْسَ ابن شهَيد أو تَابعه .

جَعلَ للمَكان طبقات بحَسب المقيمِينَ فيه..فكانت الطبقَة الأخيرة هيَ الطبقة السُّفلى للحَيَوان .وأعْطى تَوَابعَهم تسميَّاتٍ لا تليقُ، ومنزلةً لا تَرقَى: إنَّها أنفُ الناقة مرَّةً، وحَيَوَانَاتٌ في صورةِ [حمير وبغال وإوزة حمْقاء..] لقد سلّم أمرَها إلى من يستَحقُّ المكانَ:"إن للرَّوث رائحَة كريهَة، وقد كانَ أنفُ النَّاقة أجدرَ أنْ يَحكمَ في الشِّعر."(5) كان هذا حينَ حكّمُوه في شعرٍ اختلفُوا فيه بينَهم..فلم يَرضَ أنْ يَكونَ هو الحَكم .بل حَكَمَ بجدارَة ابن الافليلي بهذا الحُكم..

إنني أجدُ دلالاتِ الحيوان عندما يجْعل مِن صَاحِبه فارسًا أو بطلا لا يشقُّ له غبار ، إنَّه يستعمِلهُ بحسَبِ المَكانَةِ في نفسِه ، ومَدى إكبَاره له وتقبله لشِعرهِ لينَال مِنهُ الإجَازة فِي الأخِير، وفِي المقابل نَجدُ خصمَه في دَرَكةٍ ليُلحِقَ به بغلة أو إوزة حمقاء، أو حكما في شعر الحميروالبغال..!! ومن ذلك نجد **المكان** بين درجة عالية ودركة سفلى:

قيسُ بنُ الخطيم الذي لم يكن ليَراه طلبًا ، بل التقاه عَرَضًا وهو يمتطي فَرَسَه :" ويشتدّ في إثرنا فارسٌ كأنه **الأسد** ، على **فرس** كأنها **العقاب** .."[6] فالعبارة فيها صور بلاغيَّة تصفُ فارسًا معروفًا ، وجوّا مألوفا ،ينقله إلى العالم الآخَر ،عالم الجن عن طريق الخيال:" فإن كان الموصوف معروفا مثل قِطع الأثاثِ و المألوفة، فإنَّ الاستعَارَة والتَّشبِيهِ تُخْرِجُهَا مِنْ مَألوفِهَا إلَىَ عَالمِ الخَيَالِ لإضْفَاءِ الظِلالِ وَالأضْوَاءِ عَلَيْهَا ولتوْظِيفِهَا جَمَالِيًا .." [7]

وحين نفكّكُ الأسْمَاءَ التي دَلتْ على المكَان نَجِدُها تقاربُ شخصيَة رجُلِ الفلواتِ والفارس الذي يَعِيشُ الصِّعابَ ويُرافِقُ الحَيَوَانات الضَّاريَة في الصَّحْرَاء..

إن الفارسَ مرتَبِط بفرسِه ،ولا يمكنُه أن يوصف بالفروسية دون هذا الحيَوَان الذي يقاسمُه حياته الصَّعبَة ،ولا يمكن للفارس أن يتَّصفَ بذلك ما لم يكنْ شجاعا ،مقداما يشبهُ الأسَدَ في قوتِه وبطشِه ،بل وفي صِفَةِ الملكيَّة التي يعْرَفُ بهَا..ويملك القدرةَ عَلىَ الانقضَاضِ كالطير الكاسر ،على فريسته ،يأخذها بين مخلبيه القويتين..

كل هذا ذكره ابن شهيد حين كلمنا عن رجل من عمق البادية لا حقَهما ،واشتدَّ ركضه حتى أدخل في نفسه الخوف والرعب:"فاستربت منه، فقال لي زهير:لا عليك هذا أبو الخطّار ،صاحب قيس بن الخطيم. فاستبى لبي من إنشاده ،وازددت خوفا لجرأته.."،وزاد الخوف حين خاطبه بقوله:"وأُقسم إنَّك إن لمْ تُجِدْ ليكونَنَّ يومَ شرٍّ.."(8)إنَّ انتقالهمَا مَعَه من مكان إلى آخرَ هوَ إلغاء المكان نفسه ،ونفيه:"إنّ الحَركَةَ والرِّحلةَ تنفيانِ المكانَ ،ولا يكونُ النفي إلغاءً للمكانِ ومسْحًا له، وإنَّما النفيُ هو في سَلب المكان خصوصيَة الثبوت.."(9)

لقد وجدْتُ قيس بن الخطيم كفارس جاهلي يُشهدُ له بالقوَّة و الشجَاعة يوصفُ تشبيها بالأسد ..والحَيوان الذي يُرافقه لا يكونُ إلا من جنس الفروسية ومعناها..

والمكان هنا أوضح ما يكون ،وأشدّ ارتباطا بصاحبه ،حتى لا أقول العكس ،وهو المألوف ،لأننا نستحضر ذهنيا صورة الصحراء، والبيئة الجاهلية ،حين نتكلم عن فارس قوي شديد ،وعن فرس يشتدّ ركضها ،وعن بيئة الأسُود والطيور الضارية ..واصفا إياهاابن شهيد كأنها تلاحق طريدتها ،وتظفر بها في الأخير، بل إن ابن شهيد ينال ما لم يكن ينتظره من صاحبه ،وكأنها رمية من غير رامٍ..

ولنقارن هذه العبارة بالتي جاءت في حديثه عن الإفليلي مثلا:" فصاحا يا أنف الناقة بن معمر..."(10)وإن كانت العربُ تهتمُّ بالإبل وتربيتِها ،لكن ابن شهيد يُعرِّض بالإفليلي في الوصف:"فقام إليهما جني أشمط رَبْعةٌ وارم الأنف.."(11) لقد جاء بالناقة من بلاد المشرق ليصفَ خصمَه .فأنفُ الإفليلي لورم فيه أصبح كبيرًا ومشرومًا كأنفِ الناقةِ .ثم يزدادُ فِي الإهَانَة و الإحتقَار بدلالة استِعمَال حيَوانٍ صغيرٍ ضعيفٍ ،هو (الهرَّة) حين تكون دلالة العبارة توحي برفضه أخذ العلم من الكتب، وأنه لا يعترف بما فيها ،وهي في بيته من سَقَط المتاع ،والعلمُ من عندِ الله تعالى يُؤتيه من يشاءُ من عبادِهِ ،وليس ما يأخذه المتعلمُ منَ الكتبِ ،أو منَ الشيُوخِ ،لأن البَيَانَ تعليم الله تعالى :"قال:لقد علمنيه المؤدبون .قلت :ليس هو من شأنهم ،إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال:"﴿الرَّحْمَنُ علّمَ القرآنَ،خلقَ الإنسانَ ،علّمَه البيانَ..﴾"(12)

ثم لنقرأ ما كتب مخاطبا أنف الناقة:"..فناظِرْني على كتاب سيبويه. قلتُ :خَرِبَتِ الهِرَّةُ عليه.."(13) ليس بعد ما فعلت الهرة من إهانة . يمكن أن توحي بها العبارة . توجَّه للإفليلي ..ومن سارعلى نهجه ،بل إننا نجد دلالة الحيوان في استعماله تابعا لأحد الوزراء ممَّن يكنّ لهم الكراهية ،ولا يرضى فعالهم ،وربَّما لحقه منهم أذى ،ولا يكون إلا وزيرًا مشتغلا بالأدَبِ كان له معه فِصالُ بعدَ وِصَالٍ .يقولُ ابنُ شُهَيْد :"وقالت لي البَغْلة :أما تَعْرفُنِي أبَا عامِرٍ؟ قلتُ لوْ كَانَت ثمَّ عَلامَة ! فأماطت لثامَها فإذا هي بغلة أبِي عيسَى والخالُ على خَدّها ، فتبَاكينا طويلاً ،وأخذنا في ذكر أيامنا فقالت:ما أبقت الأيامُ منك ؟ قلت :ما ترين .قالت : شبَّ عمرو عن الطوق! فما فعل الأحبّة بعدي ،أهم على العَهدِ ؟ قلت :شبّ الغلمان وشاخ الفتيان ،وتنكَّرتِ الخلان ،ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى

الوزارة."(14)فالبغلة من الحيوان التابع لأحد الوزراء والأمراء كما هوشأنُ الإوزة التابعة لأحد شيوخ اللغة يقول ابن شهيد :" قلت لزهير:ما شأنها ؟

قال: هي تابعة شيخٍ من مشيختكم ،تسمى العاقلة ،وتكنى أم خفيف.."(15)

فالأسماء التي يذكرها ابن شهيد للحيوان لها ربط وثيق بالمكان من حيث الدلالة ، وذلك لأنها لا تُذكرعرضا وعفواً بل يأتي ذكرها حين يحتاج الإيحاء إلى شيء ،وحين يريد إيصال فكرة إلى المتلقي، لأنها ترتبط ارتباطا أكاد أقول عضويا بالشخصية التي تقترنُ بها، وهذا الاقتران مقصود، فعن الافليلي يربطه بأنف الناقة، وبالهرَّة ، وبالحمير حين تروث، وتبول، وأما المتنبي وقيس بن الخطيم وامرؤ القيس فيربط كل منهم بالفرس وبالصحراء على امتدادها..ولتوضيح الفقرة أعلاه وما ذكره فيها من أسماء للحيوانات نستعمل هذا الجدول:

الحيوان	مكانه: ودلالته الإيحائية
الناقة	البيئةالبدويةالصحراوية:التحمُّل..الشدائد..الصبر..القوَّة
الهرَّة	البيئة الأندلسية : اللين.السهولة..الضعف.الألفة.
البغلة	البيئة البدوية : الهجين..القوة..التحمُّل.الغباء..القحط وعدم النّماء.
الإوزة	بيئة حضرية: الضعف..الطيران..الماء..الحماقة..

فالناقة يَراهَا العَرَبيُّ البَدَويُّ رَمْزًا مِن رُمُوز المُكوّنَاتِ الأسَاسيَّة للمَكَان حيْثُ يتواجَدُ ،وربطها بِهِ دلالَة على الأصْل مِن حَيث يَدري ابْنُ شهَيد أو لا يَدري، لكنَّه أضَافَهَا إلى الأنف المُوحِي بالشرَم المَوجُودِ فِيهِ ،والعربي لا يقبل أن يُمَسَّ أنفُه لأنه رمز الشرف والكبرياء، ومنه الأنفة ، وهي صفة محمودة ..فإهانة العربي هي إهانة الأنف..ووصفه بأنف الناقة المشروم خِلقَةً ..بل لقد جاء بالصِّفة من البَيئة المشرقية إلى البيئة الأندلسية ليوسِمَ بها صَاحبَه الإفليلي ..ويسمّيَ تابعَه بها ..كمَا أن الهرّة توحي بالبيئتين معًا ..لكنَّه ربَطها بالبَسَاطة واللّين

أندلسيًّا أكثرَ ممَّا توحِي بالبيئة المشرقية وأمَّا البغلة والإوزة ، فهما معًا ممَّا يوحي بالحَط من قيمَة صَاحبه ،ولا يترك الأمرَ عند هذا الحد بل يذهب به إلى مجلس نقاد الجن..فيذكر حمارا أيضا ..ويرى أن الإفليلي أحق أن يحكِّموه في شعر (الروث والبول)..لأن أنفه يُميّزُ بينهُمَا ،ويَعرفُ المُفَاضَلَةَ !! إنّ تابعة هذا الشيخ يصفُها كأنَّمَا يَصِفُ شَخْصًا ،يسلبه كلَّ عناصرِ العقل التي تميزه ،فهو خفيف العقل ،وهو أحمقٌ ،ثم هو لا يستحقُّ النقاش لسفهٍ فيه..

هذه الإوزة الأديبة تسبحُ في بركة: وهي:"إوزة بيضاء شهلاء"(16)ولعل اللون الأبيض يوحي بالصفاء والنقاء ،وذكر ابن شهيد هذه العناصر المحيطة بالإوزة هي عناصر تشكل صورة لمكان تشكيلا جماليا:"إنها أشكال داخل أشكال إذا صحّ التعبير،فالاتزان والتماثل والإيقاع ،جميعها خصائص من هذا النوع ،والغرض منها التعبير عن الاستاتيكية أو الديناميكية ،السّلبية أو الإيجابية في الأشكال المرتبطة بعضها بالبعض الآخر.."(17) وهذه اللوحة التشكيليَّة الجميلة يشكلها بالألفاظ كما يلي:"في بركة إوزة بيضاء شهلاء ،مِثل جُثمَان النَّعَامَة ،كأنَّمَا ذُرّ عليها الكافور ،أولبستْ غُلالة مِنْ دمَقْس الحَريرِ..تثني سالفتها ،وتكسر حدقتها ،وتلولب قمحودتها.." (18) إن ابْنَ شُهيد يُسقِطُ وصفَ من يَكرَهُ على هذِهِ الإوزَّة ، ويراها أخفَّ ،ويُعَرّضُ بكونهَا (العاقلة) ويخبِرهُ صاحِبُه بأنَّهَا (ذات حظٍ من الأدب..)(19)وحين يقول ابن شهيد ،وهو في مجلس حيَوَان الجِنّ وقد حكّمتْهُ في قصِيدتَين لحِمَار وبَغلٍ :" والله إن للرَّوثِ رائحَةً كريهةً ،وقد كانَ أنفُ الناقةِ أجدرَ أن يحكُمَ في الشِّعرِ،فقالتْ فهمتُ عنكَ.."(20) فقد دلَّ أنف الإفليلي في روث الحمير،وغسله ببول البغال ،وهما معا يوحيان باسطبل لا تتواجد فيه إلا الحيوانات . لم يترك له قيمة تذكر،ولا شأنا يعرف به ، إن الدلالة في العبارة هذه تأتي على خصمه ولا تقيم له قائمة ،ثم يذكر في معرض حديثه إليها جُمْلَةً من الحيوانات:" ورُضيت بَدَلاً منَ العَصَافِير، ومتكلِّمَات الزَّرَازِيرِ (*)ونُسيت لذَّةَ الحَمَام ، ونقَّار الدّيوك ، ونِطَاح الكِبَاشِ"(21) في هذه الفقرة حيوانات عديدة منها الطير كالعصفوروالدِّيك ، ومنها الأنعام كالكِباش و قد أوجَدَها ابن شهيد كدلالة يشير من خلالهَا إلى حسَّاده وَمَن ينصِّبونَ أنفسَهم أوصيَاءَ عَلى الفكروالإبدَاع ولا يقصد غَير أبي القاسم الإفليلي :" وتعقَّبَ ابن الافليلي أحد معلمي اللغة في قرطبة بشدة

وتهكم به كلمَا سنحت الفرصة ،وبسببه جردَ قلمه لكتابة " رسالة التوابع والزوابع " وهاجم من أجله طبقة المعلمين جملة بعنف وشدة، فممَّا قاله فيهم " وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممَّن أتى على أجزاء من النحو، وحفظَ كلماتٍ من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ،وقلوب كقلوب البعران ،ويرجعون إلى فِطَنٍ حمئة ،وأذهانٍ صدِئة " (22)

بل ويشتد في وصفهم ، فيلحِقهُم بالحيواناتِ ، ويزري مِن قيمَتِهم يقول فِي الذخِيرَة:"..لا مَنفذ لهَا في شعَاع الرِّقة ، ولا مَدَبَّ لها في أنوَار البَيَان ،سَقطت إليهم كتبٌ في البَديع والنقد ،فهمُوا منهَا مَا يفهمُه القِردُ اليمَانيُّ منَ الرَّقص عَلى الإيقاع ،والزَّمْر عَلى الألحَان ،فَهم يَصرفونَ غرائِبَهَا فِي ما يَجري عِندَهم تَصريفَ مَن لمْ يُرزَق آلة الفَهم ،وَمَن لم تكنْ له آلة الصِّناعَة إلا بِتلكم الآلة فهُو كالحِمَار لا يمكنه أن يَتعَلمَ صِنَاعَة ضَربِ العُودِ ،والطنبُور ،لتَوتُّدِ رسْغِهِ ،واستدارةِ حافِرِهِ وَلا له بَنان يَجس به على دُستبان ، ولو جاز حِمَارٌ يُغَنِّي :

مَا بَال أنجُمُ هَذا الليلِ حَائِرَة ٍ*** أضَلّتِ القَصْدَ أمْ لَيْسَتْ عَلى فَلكِ ؟!! (23)

هذه الحيوانات لا تحمل أكثر من دلالة استهجان ،واستقباح ما يأتيه خصُومُه ،وما يدَّعونَه من علم ،وهم ليسوا كذلك وعلى النقيض..إنهم كالقردة لا تحسِنُ الرقصَ على الإيقاع ،وكالحَميرِ لا تحسنُ العَزفَ على العُودِ..

وصفوة القول:

هنا يمكن إجمالها في وصف خصومه ببيت الشاعر العربي حسَّان بن ثابت قديمًا حينَ قال يهجو :

لا بأس بالقوم من طول ومن قِصَر***جسْمُ البِغال وأحْلام ٍالعَصَافِير

فأبو عيسَى تابعته بغلة ذاتُ خال تُعرَفُ به.. وأحَدُ المشايخ تابعته إوزة في مثل جثمان النعامَة ، كما وصفها ..خفيفةُ العقل ، حمقاء: لم يعرف الناس أحمَقَ من الإوز،ومن كانت الحمقاء ترشدُه ،كانَ كَمَنْ كانت العميانُ تهديهِ !!

ذهب ابن شهيد باحثا عن إجازات الكبار ،عرفانًا بشعره ونثره ،وما حازه من مكانة مرموقة ، فإذا به يتحوّل إلى مهاجم عنيف ،وناقد شرس ،وحكَمٍ شديدٍ يرى كل خَصْم

دونَه مكانةً، وأقل منه حظوةً ومنزلةً..لقد حققَ ما أراد..فعاد محمَّلا بشهادات أكثر ممّا كان يريدُ.. فكيف خَدم المكانُ (قضيته) ؟ وهل استفاد منه ابن شهيد؟ .

ثانيا: دلالة المكان الموحش:

لقد أجاد ابن شهيد في تعلقه **بالمكان** تعلقا عاطفيا جعل منه محور النشاط الدفاعي الذي قام به ،متنقلا بين المشرق والمغرب ،وبين الواقعي والافتراضي، مُحضرا من يشاء من الشعراء والخطباء ..وهذا الدور العاطفي :"يتعلق بحالة الكينونة ،وخاصة تلك التي تتسم بالعاطفة .."[24].فهو حين يقرُّ بدايةً في قوله:"..فاتفق أن ماتَ من كنت أهواه مدّة ذالك الملل ،فجزعتُ وأخذتُ في رثائه يومًا في الحَائر.."[25] قد ذكر الدافع العاطفي (من كنت أهواه) والوجود المكاني(الحائر) وعلة ذلك (الرثاء) . وبربطها بالزمن نجد : الماضي (كنت) والآن (أخذت في رثائه..) ولأن الزمنَ لا يملك خاصية الإعادة فهنا ابن شهيد لا يملك حيلةَ إرجاع مَن ذهبَ ،لكنه يملك القدرةَ على استرجاع الذكريات عن طريق ملابسات **المكان**..فإذا كانَ الزمنُ نظيرا للمكان ،فإنه كما يقول كانط(إنه أولا في العقل وبعد ذلك في الحساسيَّة)[26]..وبمثلث الدلالة كما يراه الأنجليزيان :أوجدن، وريتشاردز يمكننا أن نقارب هذه الصورة الإيحائية ، وبداية الفعل الإنتاجي ككل للرِّسالة من خلال مؤثر خارجي وصورة ذهنية يستحضرها عن محبوبه الغائب أو المُغيَّب بفعل الموت [رثاء] واستجابته لهذا الوفاء بقصيدة في الموضوع ، كان **المكان** فاعلا ، وعنصرا مهمًّا جدا .ولتقريب ذلك أكثر في الأذهان سأحاول تبيان ماذهبت إليه من خلال هذا المثلث وتحليله..

إن هذه العلاقة المكانية كانت كما يلي:

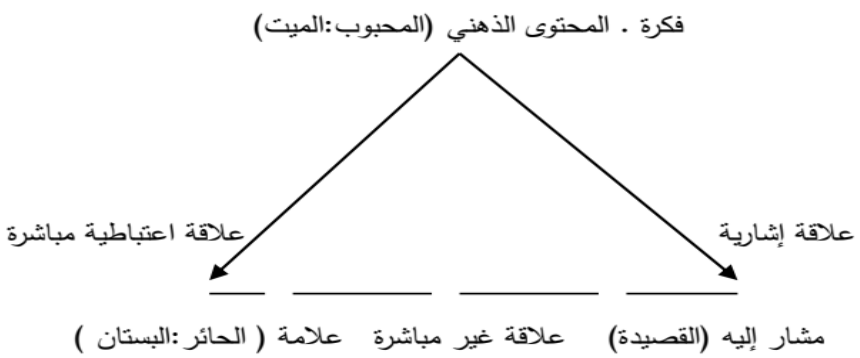

فالفكرة التي هي التعلق الذهني بالمحبوب ،وما أوحت به الحالة(الموت) في مكان يرمز إلى اللقاءات والجلسات (البستان) وهي علاقة مباشرة بينهما، على اعتباطيتها فهي أوحت بالرثاء للتعلق العاطفي، لكن لا علاقة مباشرة بين المكان (الحائر:البستان) والقصيدة ، إنما الرثاء والتعلق ،والوفاء للمحبوب .

وحين نربط المكان بالزمان فإن ذلك يوحي لنا بالمدة التي قضاها ابن شهيد في المكان لأن **الآن** [l.instant] هي لحظة البحث عن أبيات للرثاء..قد تطول أو تقصر.ومضى الزمان : استحضار العلاقة مع الميت(المحبوبة).صورة متخيلة هذه الثنائية . كما رأينا . تنتج المدة [la dureé] في هذه الأثناء وفي هذا المكان يأتي الفرج الذي يتصوره ابن شهيد بحضور التابع:زهير بن نمير..

فالمنفذ كان ذكيا من خلال ثنائية المكان والزمان، والبحث عن الدرجة والرفعة الإجتماعية انتقلت من مكان طبيعي [البستان] إلى آخر رآه ابن شهيد مناسبا لما يرجوه.وادي الجن أو مجالس الجن.

إنَّه ذلك المكانُ الخَالي الجَاف من الحَيَاة ،المُوحِي بالوَحشة والغُربَة ،يلفُّهُ السُّكون التام، وربَّما دلَّ المكان المُوحِشُ على انعدَام عَناصر الحَيَاة فيه كالبئر الجَافة مِن المَاء أو كالأرْضِ الخَاليةِ منَ السُّكان ،أو كالبيتِ الذي تركَه أهلُهُ منذُ مُدَّةٍ فتلاعَبَتِ الرِّيَاح بأركَانِه ونَسَجَت العَنَاكبُ بيوتَها على زوايَاه ، ولو كانَ قصْرًا أو بنيانًا شاهقًا..

إنَّ ابنَ شهيد أنزلَ أصحَابَه هذا المكان ونرَاه يقلبُهم تارَّةً بَينَ هذا وأخرى بينَ ذاكَ ، لنتتبَّع هذه الأمكنَةَ ونستنتجُ ما توحِي به دلالاتُها..

يقول ابن شُهيد في حَديثِه عَن أوَّل زيارَة إلى وَادِي الجِن:"..فظهرَ لنَا فَارسٌ على فَرسٍ شقْرَاءَ كأنها تلتهبُ.. "([27]) ليسَ في العبَارة مكان لكنَّه يصفُ مَجيءَ امريء القيس إليهم في هذا المكان المُخيف باستعمَال لفظة (تلتهبُ) وهو من الدَّلالة على أنَّ الشياطينَ خلقَت منْ نارٍ، وهيَ مخيفة ولا تنزلُ الشياطينُ إلا في المكانِ الموحشِ المُخيفِ..وهو استعمَال ذكيٌّ من ابن شهيد.. وقد ذكرَ في البدَاية أنَّه حلَّ مكانًا يختلفُ عمَّا نَعرفُ (حتى التمحت أرضًا لا كأرضِنَا)([28])

وفي مَوقع آخَرَ نَقرأُ قَولَه :**لِسعدى بحرّان الشريف طلولُ**

المكان فِي شرح عَناصره مُوحِشٌ ،ويبعَثُ على الخوفِ من الدنوّ منه ،فهي جبالٌ صَلبةٌ ، قال الشارحُون إنَّها أمَاكن العقبَان ،وفي صَحرَاء نَجد ، والحرّان المكان الغليظ الصّلب ..إنَّ ذكرَ هذا كانَ حينَ اللقاء بطرفة ابن العبد ، والبيت من ديوانه:

لِسُعدى بحزان الشريف طلول*** تلوحُ وأدنَى عَهْدَهُنَّ مُحِيلُ [29]

وحينَ زيَارَته أبَا نوَاس والتقائه صَاحبَه ،نقرأُ أمكنَة ،لكنَّها تُبدي التَّوحُّشَ حينَ تَرتَبطُ اللفظة بالسِّياق الذِي وَرَدتْ فيهِ ،لنسْمَعَه ينشد:

"فمَن مبلغ الفتيَان أنّي بَعدَهم *** مُقيمٌ **بدَار الظالِمِينَ** طريدُ [30]

والدار كمكان إقامَة تعني الألفَة والأمَان ،لكنَّنا نستشفُّ منهَا الوحَشة والخَوفَ حينَ ربطَهَا بمفردَتين نسَجتا المَعنى العَام الذِي وَرَدت فيه ونقْصِدُ بهمَا: الظالمِينَ وطَريد..فالشَّخْصُ المُلاحقُ يشعُرُ بالخَوف يُلاحقُه ولا يشعُرُ بالأمَان في المكان الذي يُقيمُ فيه ،خاصَّة إذا كانَ هذا المكان (دار الظالمين) إنَّني أرَى الخَوف يلفُّ المكان ،ويَسْحبُ كيَانَه بكل ثقَلهِ على الشاعر..فيلبسُه و يَحتَويه ،وَيَتَحوَّل المكان إلى مُوحِش ،مُخيفٍ .لقدْ تكرَّرَت أيقونة الجبل في النص ،وفي أماكن متعدِّدة ،فنحنُ نجدُها مكانًا موحشًا عندما يقول:" وسرنا حتى انتهينا إلى أصْل جَبل دَير حنّاء ،فشقَّ سمْعي قرعُ النَّواقيس.."[31]..فقد ارتبطت بقرائن:شقَّ..قرع..ممَّا أوحت إلينا بأنَّها مكانٌ موحشٌ ومخيفٌ يبعثُ الرَّهبَة من دخوله، ولكنَّنا نجدُها أقلَّ حدَّةً من ذلكَ عندمَا يربطهَا بمؤشر دِيني قدسِيّ ذي إيحَاءَات لا تقبلُ التوحُّشَ ،ولا تلغي الرَّهبَة والخَوفَ..حينَ قال:

هززتُكَ في نصري ضُحًى فكأنني* هززْتُ ،وقد جئتُ الجبَال ،حِراءها** [32]

وإحالة الجبل لا تكتفي بالمكان من حيثُ هو حيّزٌ ضَيقٌ(غار حِراء)ولكنَّه أوسَع من ذلك (مكة كلها)إنَّها إحَالة إلى المكان المُقدَّس ومَا يُحيط به من هالة واحترام، إننا هنا أمامَ شاعر أرادَ أنْ يتواطأ :"بينَه وبينَ المتلقِّي ليمرّرَ من خلاله تيارَ التداعي والإحَالة المرجعيَّة .وإذا أحسَّ الشَّاعر أنَّ " الوتيرَة " قدْ ضَبَطت راحَ يغرقُ في عتمَات المَعنى أكثرَ فأكثرَ،وتلفَّعَ شِعْرُهُ بالغُمُوضِ والرَّمْزِ.."[33] إنَّ الرَّمْزَ المُسْتَعْمَلَ لأيْقُونَةِ الجَبَل ،قَدْ تَمَّ ضَبْطُهَا عَلَى المَرْجَعِيَّةِ

الدِّينِيَّةِ لَدَى المُتَلَقِّي ونَجِدُ المكَانَ أكْثَرَ دَلَالَةً عَلَى التَّوَحُّش وَالتَّفَرُّد وَالغُرْبَة ،فِي قَوْلِهِ:" أَنْشِدْنِي جَحْدَرِيَتَكَ مِنَ السّجْنِ."(34) فَالسِّجْنُ مَكَانُ الانْفِرَادِ. العُزْلَةِ. العُبُودِيَّةِ وربَّمَا المَوْت كذلك..هذا في عموم الدلالة أما في خصوصية استعمالها هنا ولو ربطها بلفظة(أنشدْ) فهي للتنفيس والبَحث عن هواء قد يكون صافيا ينعش الأمالَ في بعث الحَيَاة ،والخروج من الحيّز السَّالب للحريَّة (السِّجن):"إننا ننظر إلى موضوعة السِّجْنِ على أنها فضَاءٌ يحتوي الموقفَ الفنيَّ ويُوَجِّهُهُ ،ويبعثُ فيه شروطَ الإبْدَاعِ المختلفَةَ ،ويمكّنُهُ منَ "الهَدَأَةِ" فتكتسبُ اللغةُ فيها طابعا خاصًّا تتأرجَحُ دلالاتُها بينَ قطبين: قطبُ الدَّاخل ،وقطبُ الخَارج/ قطب الحقيقة ،وقطب الرَّمز .إنَّ اللغة تفقِد وظيفتها الدلاليَّة المَعْهُودَة لتكتسبَ من المَوقف مَرجعيَّة تأثيلية ،تغترفُ منها رمزيتها وإشاريتها ،وتغدو قراءة اللغة في هذا الفَضَاء :الضيّق/ الواسع ضَربًا من التَّجدِيد في قاموسِها الدَّلالي .إذ يتوجَّب أسَاسًا إهمَال مَاهو معروف ،وجَارَ على الألسنَة ،ومصَاحبَة الشَّاعر في هَذا الفضَاء ..في مَشاعره ،مخاوفِه ،وآلامِه في مَا يريدُه مِنْ لغتِه لنفسِه ولغيره .إنَّه عَالم خَاص ،له قوانينه ،وأعرَافه ،وعَاداته، وبالتالي لهُ لغتِه الخَاصَّة .فكلُّ كلامٍ يندُّ عَن هَذه الدَّائرةِ المغلقةِ ،كلامٌ غريبٌ مردُودٌ.."(35) إنَّ دَائرة السَّجن تُوحِي بمَا تَحْمِله المرجعيَّة السِّياسيَّة لأيقونَة السِّجن كحيّز تمارَسُ فيه الإهَانة ،التَّضييق، التَّعسُّف..ليصبحَ المكانُ مغلقًا مُوحِشا..:" كمَا يَرتبط السِّجن بالظلام والقسْوة التي تتمُّ بيدِ السَّجَّان أو الجَلاد.."(36)

وكأنَّ ابنُ شهيد يريدُ استخدَامَ هَذه الدَّائرَة هنا ليُخرجَ صاحبَه من الضَّيقِ الذِي كانَ عليه ، باحِثًا لهُ عن فسْحَةٍ أوسَعَ ،ووعيًا أكثرَ باللقاء والتمتُّع بمَا يلقى عليهِ:" فلمّا سَمعَ هَذا البَيتَ قامَ يرقصُ بِهِ ويردِّدُهُ.."(37)إنَّهُ الكلامُ عَن أبي نَوَاس ،ومَا يَفعلهُ بهِ الشعْرُ ، فعنْ أيّ بيتٍ أقامَه راقصًا..وأقعدَهُ متأمّلا واعيًا منتبهًا ؟إنهُ موحشٌ مكانُه ،يقول ابن شهيد :

فوَلّتْ وللمِسكِ مِنْ ذيْلِهَا* عَلى الأرْض خَطٌّ كظَهْرِ الشُّجَاع..(38)**

لقد تحوَّل المِسْك المبثوثُ في مكان تنقلهَا إلى خَط لأقرعَ يخيفُ..يبعثُ الرُّعبَ وقد أشار إليه في بِدَايةِ النص نفسِه حِينَ قال:

أَتَتْنَا تَبَخْتَرُ فِي مَشْيِهَا * فحلّتْ بوادٍ كثيرِ السِّبَاع** (39)

ليسَ مِن قصْد للسِّباع سِوَاه وَمَنْ سَارَ في فلكِهِ ،أحدثوا الخَوفَ في نفس زائِر المكان المقدَّس للعِبَادة ،فَحَوَّلوه في نفسهَا إلى مَكان مُخِيفٍ ،وَربَّمَا لبستْهُ الوحْشَة والتفردُ ،فانقطعت/وانقطعن عنه..

سعت بابنها تبتغي مَنزلا * لوَصْل التبتل والانقِطاع.."**(40)

هذا المنزلُ المقصودُ للتبَتل حَوّلهُ إلى مَكان وَحِيدٍ منقطِعٍ ،وَرُبَّمَا موحشٍ.

ومن الأماكن الدالة معانيها على الوحشة نجد :

1/ "..وما الذي أسكنك قعرَ هذه العين يا عتّاب ؟.." (41) فسياق الكلام أوحى بالوحشة لأنه ربطها بالأسفل والقعر لا يكون إلا للوضَاعة ..

2/ "..وسعد المنية في كل واد.." (42) لقد وظف هذا المثل العربي للدَّلالة على الموتِ الذي يتربص صاحبَه بالوادي إذا حَل بهِ

3/"..فحلّت بواد كثير السباع.."(43) إن كثرة السباع تحيل المكان موحشا ،وتبعث في النفس الخوف من دخوله..وكل من يحلُّ به لا يُسَمَّى بغير الشجاع أو المجازف والمُخاطر..

على الرغم من وجود عنصر الماء المشارك كسِيمة تربط المكان في الشواهد الثلاثة ، لكنّها لا توحي بغير الوحشة ، والخوف. ولذلك كان استعمالها بهذا الإيحاء عندما أراد أن يجعل من المكان غير مرغوب فيه. هرب من البلاد الغامرة ماءً، - وقد أنكرت عليه المنزلة والمكانَةَ - إلى البلاد التي أحياها بمَاء المَعرفَة والشِّعر والنَّثر والقدْرةِ عَلى إصْدَار الأحْكام .إنَّهَا بلادُ المشرق .

الخاتمة:

لمْ يَكنِ ابْنُ شُهَيد ليَستَعْمِل تَوَابعَ بَعضِ الشَّخْصِيَّات مِنَ الحَيوَان اسْتِعمَالا اعْتبَاطيًا دُونَ ابْعَادٍ دَلاليَّة..ولا ليَربِطَهَا بشَخْصِيَّاتٍ مِنَ الوَاقع المَألوفِ دُونَ دَلالة أيْضًا..

فالحيوان هو تابع لرجُل قد يكون عظيمًا كما فَعَلَ ذلكَ مَعَ الاوزّة التي قالَ إنَّها تابِعَة أحَد الشّيوخ:"ومن سُخره بالنّحاة أنّه جَعلَ في التّوابع والزّوابع تابعةَ أحَد الشّيوخ إوزّةً ، والإوزّ يُضْربُ به المَثل في الحُمْق والسَّخَافَة..."(44)

كمَا لمْ يكنِ المكانُ ذاتُه موسُومًا بغير مَا يُريدُه مِن البَعث الجَديد لحَيَاة يُريدُها لأدَبِه مُرتَبطَة بعُظمَاءَ اختَرقوا المَكانَ الفيزيَائي الذِي عاشُوه ..وحلّوا به وسَكنُوه وانتقلوا بَيْنَ مرابعِه ، وفيهِ عَرفَهم النّاسُ وألِفُوهم..فكانَ مِنَ المكانِ ذلكَ المُوحش الذي أعْطاهُ أبعَادًا دَلاليَّة تجاوزتْ حيّزَه المَاديَّ إلى حيّز نفسيّ ولو كانَ واسِعًا أو بيتًا ضيّقًا..

الهوامش:

1/ محمّد مرتضى الحسيني الزّبيدي: تاج العَروس من جواهر القاموس تحقيق مصطفى حجازي دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع 1409 هـ 1989 م ص 277.

2/ مجموعة من المؤلفين:المعجم الوسيط القاهرة 1380هـ 1960م ج 1 الطبعة 2 ص229

3/ سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. دار الكتاب اللبناني . بيروت سوشبرس . الدار البيضاء، الطبعة الأولى / 1985 م ص: 55 / 56

4/ .ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري/زكي مبارك .المكتبة العصرية .بيروت.2006/ ص:322/1

5/ ابن شهيد :التوابع والزوابع./تح/بطرس البستاني .دارصادر.بيروت.1996/1967. ص:149

6/ ابن شهيد .التوابع والزوابع..م.س.ص: 92.91

7/ سيزا أحمد قاسم :بناء الرواية ،دارالتنوير للطباعة والنشر، بيروت ،لبنان ،ط.1.1985 ص:98

8/ ابن شهيد التوابع والزوابع .تحقيق البستاني .م.س..ص:96

09/ ابن شهيد التوابع والزوابع .م.س.ص:96

10/ ابن شهيد التوابع والزوابع .م.س.ص:124

11/ م.س. .ص: 125

12/. م.س .ص : 124

13/ ابن شهيد التوابع والزوابع م.س.ص :149

14/ ابن شهيد التوابع والزوابع م.س.ص:150

16.15/ ابن شهيد ،التوابع والزوابع.م.س.ص:149

17/ هربرت ريد. تعريف الفن .تر.إبراهيم إمام. مركز الشارقة للإبداع الفكري(د.ت) ص:25

19.18/ ابن شهيد .التوابع والزوابع م.س.ص:150

21.20./ ابن شهيد .التوابع والزوابع.م.س.ص:149

*/ الزَّرْزُورِيّات :مصطلح ابتدعه الدكتور إحسان عبّاس للدلالة على إحدى عشرة رسالة إخوانية وخطبة دينية كتبها سبعةُ كُتّابٍ أندلسيين ينتمون إلى حقبة المرابطين ، اتخذت من التودُّد والشفاعة والعتاب والكُدْيَة أفقاً .ومن السخرية الفكهة أداة .وقد زاد أبو الحسين بن سراج (ت508هـ) القول في هذا الفن الذي "نشأ نشأةً أندلسيّةً خالصة" عبر رسالة شفع فيها لرجل صُودِفَ أنه كان يُدْعى "الزُّرَيْزِير" فاستغل الإيحاء اللفظي العابر لتلك المفردة ، مُسْتَعيراً ما لهذا الطائر من أسماء وصفات.

22/ عباس.إحسان.تاريخ الأدب الأندلسي ،عصرسيادة قرطبة.226/1..جاء في تحقيق الذخيرة للدكتورإحسان عباس [حين كلامه عن قصيدة:وتدري سباع الطيرأن كماته***إذا لقيت صيد الكماة،سِباع] على الهامش ما نصه :"أورد ابن خاقان (ج.117/1)بيتين من هذه القصيدة ونسبهما لابن شهيد ... ونرى ابن شهيد هنا ينسب الأبيات إلى جني اسمه فاتك بن صقعب فهل يعني نفسه ؟إن جنيه زهير لا فاتك ، فهل كان له غير تابع واحد ؟ يبدو ذلك .لأن هذا الجني نفسه هو الذي استطاع أن يأخذ معنى أمرئ القيس "سمَوْتُ إليها " البيت. وأن يحلّه في أبياته :"ولمّا أن تملّأ من سكره.." وهذا أمر معروف من فعل ابن شهيد والأبيات ثابتة له. فلماذا اختار ابن شهيد في هذا الموقف أن يكون له تابعان؟وقد أدرجت الأبيات العينية في ديوان ابن شهيد :123"اهـ[الذخيرة ق1.م1.ص:285]

23/الذخيرة ..ق.1.مج.1.ص:240

24/ معجم مصطلحات السيميوطيقا .برونوين م/فليزيستان.ر/تر:عابد خازندار الهيئة العامة للنشر والطباعة والإشهار.القاهرة.ط.2008 .ص:145.

25/ اين شهيد .التوابع والزوابع..تحقيق البستاني ص:88

26/ج.بنيروبي: مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا.تر/عبد الرحمن بدوي.المؤسَّسة العربية للطباعة والنّشر.بيروت (د.ت).ط.2.ص:398

27/ ابن شهيد .التوابع والزوابع ..تحقيق البستاني.م.س. ص : 92.91.

28/ م.نفسه :ص:94

29/ م.نفسه.ص: 110

30/ م.نفسه.ص:110

31/ التوابع والزوابع..ص:104

32/ التوابع والزوابع.ص:97

33/ مونسي.حبيب. فلسفة المكان في الشعر العربي. م.س. ص:75

34/ ابن شهيد .التوابع والزوابع. م.س.ص: 109

35/ مونسي.حبيب. فلسفة المكان في الشعر العربي. م.س.:86

36/ جماعة من الباحثين . جمالية المكان : مطبعة قرطبة الدار البيضاء ط.1988.2.ص:27

37/ التوابع والزوابع..ص:111

38/ التوابع والزوابع..ص:111

39/ المصدر السابق

40/ م.س. ص:110

41/م.س.ص: 98

42/ م.س. ص: 99

43/م.س.ص: 111

44 /التوابع والزّوابع . ابن شهيد/ تح / بطرس البستاني . م.س. ص:55